حج مبرور .. في منزل الوحي

محمد حسين هيكل (1305 هـ= 1888 – 1376 هـ= 1956م)، من أبرز كتّاب ومفكّري وسياسيّي مرحلة الازدهار الفكري والأدبي (النصف الأول من القرن العشرين)، ويمثّل خصوصية متميزة بين رفاق عصره، فقد نشأ في داخل الثقافة الغربية، تشرّبها واطمأن إليها، وتأثر بالنزعة الفرعونية التي شهدت تناميًا بسبب تقدم الدراسات الأوروبية في حقل «المصريات» وتجلت معالمها في كتابه "ثورة الأدب" 1933.

اتصل هيكل ببعض أعلام عصره وتأثر بهم، وأبرزهم أحمد لطفي السيد وقاسم أمين ومحمد عبده.. ، ولكنه ظل في داخله محتفظا بطبيعة الفلاح المصري المسلم، الطيب الوديع، صاحب الخلق المستقيم، مع ميل إلى الدعابة العذبة في مجالسه، حاضر البديهة والمنطق الأدبي السليم، ومثال التواضع، لم تغيره المناصب.، ولكن الثقافة الغربية منعته لزمن ما، من الإفصاح عن الثقافة الإسلامية، حتى اكتملت في ذهنه الصورة الصحيحة للإسلام، فلم يتردد في الإعلان عنها، والتبشير بها، والانطلاق منها، من خلال كتبه التي نشرت في حياته أو بعد رحيله: حياة محمد 1935، ومنزل الوحي 1937. الصديق أبو بكر1942، الفاروق عمر1944، الإمبراطورية الإسلامية والأماكن المقدسة1960، الإيمان والمعرفة والفلسفة 1964، عثمان بن عفان: بين الخلافة والملك 1964.

رحلة حياة

لقد علمته عائلته الثريّة في كتّاب قريته (كفر غنام- مركز السنبلاوين، دقهلية)، فحفظ القرآن الكريم وتعلم القراءة والكتابة، ثم التحق بمدرسة الجمالية الابتدائية، وأكمل في مدرسة الخديوية الثانوية، انتقل بعدها إلى مدرسة الحقوق المصرية عام ١٩٠٩م. وسافر إلى فرنسا ليحصل على درجة الدكتوراه. وعاد إلى مصر عام ١٩١٢م ليشتغل بالمحاماة والصحافة حتى عام ١٩١٧م، والتدريس في الجامعة حتى عام ١٩٢٢م، وكان عضواً في لجنة الثلاثين التي وضعت دستور 1923، أول دستور صدر في مصر المستقلة وفقاً لتصريح 28 فبراير 1922م. قرر الاستقالة ليتفرغ للعمل السياسي، فشارك في قيادة حزب الأحرار الدستوريين، حتى صار رئيسًا له، وتولى رئاسة تحرير جريدة «السياسة» المعبرة عن الحزب، ودخل الوزارة فتقلد منصب وزير المعارف ثلاث مرات، ووزير الشئون الاجتماعية، وانتخب رئيسًا لمجلس الشيوخ، وتولى تمثيل السعودية في التوقيع على ميثاق جامعة الدول العربية عام 1945م. واختير رئيسًا لوفد مصر في الأمم المتحدة عدة مرات.

انضم هيكل إلى كثير من الهيئات العلمية، فكان عضوًا في الجمعية المصرية للقانون الدولي والجمعية المصرية للدراسات التاريخية، واختير عضوًا في مجمع اللغة العربية سنة (1359هـ = 1940م) فكان من الرعيل الأول لأعضاء المجمع، ويذكر له اقتراحه على المجمع بوضع "معجم خاص لألفاظ القرآن الكريم"، فوافق المجمع على اقتراحه، وكان من أعضاء اللجنة التي تألفت لوضع منهجه.

الرائد الأول

وفي غمرة هذه الأنشطة العامة فقد قدم إنتاجا أدبيا جعل منه الرائد لأول رواية فنية في الأدب العربي الحديث، وهي رواية زينب1914 (أخذ منها أول فيلم صامت بمصر)،أتبعها بكتب أدبية منها: في أوقات الفراغ: مجموعة رسائل أدبية تاريخية أخلاقية فلسفية1925، وتراجم مصرية وغربية1929، ولدي1931، وهكذا خلقت: قصة طويلة1955، وقصص مصرية1969،

وفي نشاطه العام والفكري والأدبي، مرّ هيكل بتحولات فكرية انتقلت به من الولاء للثقافة الغربية والفرعونية إلى الثقافة الإسلامية بمعطياتها الإنسانية الرحبة، وقد أثرت فيه ممارسات الغرب وتجليات التقدم الأوربي حين رأى الوجه القبيح للمدنية الغربية رأي العين من خلال حربين عالميتين (1914، 1939)، راح ضحيتهما أكثر من خمسين مليونا من البشر، فضلا عن الوحشية الاستعمارية التي ارتبطت بالدم والنهب وسلب الحرية، وزيف الديمقراطية الغربية، مما دفعه إلى مراجعة أفكاره، والبحث في التراث الإسلامي، فكان كتابه "حياة محمد" باكورة تحولاته إلى الثقافة الإسلامية الخالصة، ونموذجا جديدا لكتابة السيرة النبوية وفقا للمناهج الحديثة، ثم جاء كتابه "في منزل الوحي" ليسجل فيه رحلته إلى الحج، ويبرز من خلالها روح الإسلام، ومشاعره الخاصة في سياق من الإيمان العميق، والوفاء للدين الحنيف.

الرحلات الحجازية

لقد حرَص كثير من العلماء والأدباء والمؤرِّخين والرحَّالة على تدوين رحلاتهم إلى الديار المقدسة، وركز معظمهم على وصف الأماكن المقدسة، وتحدثوا عن الأشخاص والأحداث التي تعلقت بهذه الأماكن، وعبروا عن مشاعرهم وعواطفهم في الرحلة التي تمثل حالة خاصة لكل منهم، وتختلف عن بقية الرحلات، لقد سجلوا رحلة الحج، كل بتصوره وأفكاره، حتى من يسمونهم بالعلمانيين في عصرنا، خاضوا في الموضوع وكتبوا عن الحج متأثرين بآراء المستشرقين والماديّين.

وأظن أن كتاب عبد الله الحقيل (رحلات الحج في عيون الرحالة وكتابات الأدباء والمؤرخين. مكتبة الرشد، الرياض، 1433هـ= 2012م)، قد تناول أهم الرحالة الذين كتبوا عن الرحلة الحجازية قديما وحديثا، ومنها رحلات: "ابن جُبير الأندلسي، ابن بطوطة، ناصر خسرو شاه، ابن عبدالسلام الناصري الدرعي. إبراهيم رفعت باشا، أحمد حسن الزيات. إبراهيم المازني. محمد حسين هيكل. عباس محمود العقاد. محمد بهجت البيطار. عبدالقادر الجزيري..

أَوْبَةُ الرّضا

بيد أن رحلة محمد حسين هيكل تبقى متميزة، لأنها سجلت معنى فريدا من الانتماء إلى العقيدة، والإيمان الخالص بالإسلام، والاقتناع التام بالشريعة، وقد طبعتها دار المعارف وغيرها منذ 1937، طبعات عديدة، لعل أحدثها (طبعة مؤسسة هنداوي، القاهرة، 2014م)، وهي التي نعتمد عليها. وأظن أن القارئ الكريم سيجد فيها شيئا مختلفا عن الكتابات الأخرى المماثلة، وحين يطالع مثلا ما كتبه هيكل في نهايات رحلته، سوف يشعر بشيء يؤثر فيه ويجذبه نحو آفاق من الهدى والرشاد:

"ولو علم أهلي ما فتح لله به عليَّ حين سرت حيث سار رسوله، وحين وقفت حيث وقف، وما رأيت من آيات لله في مسيري وفي وقوفي، لزادوا بمقدمي تهلُّلًا وفرحًا، ولقد رأيت حقًّا من آياته الكبرى، فسَمَتْ هذه المواقف بنفسي إلى حيث لم تسْمُ من قبلُ قط، رأيت نور لله ماثلًا في كل دقيق وجليل من خلقه، ورأيت آية الهدى متجلية يشهدها كل مَن أراد أن يفتح لها قلبه وبصيرته، ورأيت سُنته في الكون تتبدَّى لكل من أخلص.." (في منزل الوحي، ص536).

ويضيف هيكل تحت عنوان "أَوْبَة الرِّضا":

"إلى الحق وجهة ثابتة لا تبديل لها، رأيت هذا كله رأي العين، وآمنت به إيماني بما يقع عليه حسي وما تلمسه يدي، وأيقنت أن العلم بهذا كله هو الحياة الراضية المرضية، نعم! كذب الظن مَن يحسبون التكاثر بالمال والجاه والسلطان شيئًا في وجودنا، إنما الشيء الذي هو كل شيء في الحياة فذلك إيماننا بالحق عن بيِّنة، وسمونا بهذا الإيمان فوق منافع الحياة جميعًا، وازدراؤنا هذه المنافع أن يصيب الحق من جرائها مساس، وهل يعدل كل ما في الكون من مال وجاه وسلطان قبسًا من نور الحق وضياء الهدى؟! وهل يبقى على الحياة غير الحق وضيائه؟! والباقيات الصالحات خيرٌ عند ربك ثوابًا وخيرٌ مردًّا.ربنا لك الحمد على ما أنعمتَ وتفضلتَ، ربنا فاهدنا صراطك المستقيم، ربنا ثَبِّتْ إيماننا، واجعلْ تقواك رداءنا، ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار.". (في منزل الوحي، ص537).

ستة كتب في كتاب

يتكون "في منزل الوحي"، من مقدمة، وستة كتب وخاتمة. الكتاب الأول: فرض الحج، ويكشف فيه عن عزم السفر، و المَرْفَأين، والعمرة بمكة، ووقفة عرفات، وأيام التشريق. الكتاب الثاني: البلد الحرام، ويتحدث فيه عن مكة الحديثة، وابن السعود بمكة، الجمعة في الحرم، وجوف الكعبة، وآثار مكة، وغار حراء، وغار ثور، وظاهر مكة.

الكتاب الثالث: ويدور حول الطائف وآثارها، وطريق الطائف، وبادية الطائف، وأسواق العرب. الكتاب الرابع: بين الحرمين، ويصف فيه طواف الوداع، وطريق المدينة، ووحي المدينة. الكتاب الخامس: مدينة الرسول، والمسجد النبوي، والمدينة الحديثة، وآثار المدينة، وجَنَّة البَقِيع، وقبر حمزة، والحجرة النبوية، وظاهر المدينة، زيارة الوداع. الكتاب السادس: أَوْبَة الرضا، بدر وشهداؤها..

ثم خاتمة الكتاب، وفيها رؤية متقدمة قائمة على التصور الإسلامي، لنهضة الأمة التي تعاني من التفرق والتشرذم، يقول هيكل: "لعلنا نعود سيرة السلف فنَثِبُ وثبتهم هُدًى لإخواننا بني الإنسان؟ لقد شهدتُ من ذلك ما سطرتُه في هذا الكتاب، ويعلم الله أني أوَدُّ لو أنهل من هذا الوِرْد في كل حين، وأن أقف حيث وقف الرسول وأن أسير حيث سار، ملتمسًا في سيرته وفي مواقفه الأسوة والعبرة، فإنني لعلى يقين من أن التأمل في السيرة ومواقفها، وفي التعاليم التي جاء بها الرسول، خير ما يهدي الإنسانية سبيل الحق والخير والجمال، وما ينهض بها من دَرَك أمسكتها المادية فيه عن السمو إلى مراقي الروح حيث العيش إخاء ومحبة وحرص على العلم بما في الكون؛ ليضيء العلم بنوره إخاءنا ومحبتنا، ويزيدهما إنسانية وسموًّا، ويصل بنا في ظلهما إلى حِمَى السلام.

لقد حالت الحوائل دون مسيري في أثر الرسول إلى الشام حيث ذهب صبيًّا، وإلى خيبر حيث ذهب نبيًّا، فلعل لله يهيئ لي من بعدُ أسبابَ هذا السير فأستكمل به غرضًا هو اليوم أجَلُّ أغراض الحياة عندي، وأزداد به إيمانًا وتثبيتًا، وأنعم به في ظلال الحياة الروحية الوارفة، وأبلغ من ذلك ما سَعِدتُ به من الرضا حين جاورتُ البيت الحرام، وحين زرت قبر النبي- عليه الصلاة والسلام.﴿إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾. (في منزل الوحي، ص546).

سطوع الحقيقة

لقد استطاع «محمد حسين هيكل» كما يقول ناشر الكتاب، أن يُقدِّم لنا وثيقة تاريخية وأدبية فريدة في أسلوبها، عظيمة في أثرها، غنية ووفيرة بما تحمله من معانٍ جمَّة، ورُوحانيات عالية، تسمو بالنفس لتطوف بها حيثُ طاف النبي-ﷺ- وصحبه. يحمل لنا كثيرًا من المعاني التي جاشت في خاطره أثناء زيارته لمهبط الوحي وموطن الرسالة المُحمدية، فكانت خواطر مليئة بالإيمان تبحر بنا في أعماق الماضي بصورة حديثة. وهذه شهادة لم يكتمها «هيكل»، على خلاف ما كان يعتقد من إيمان عميق بالثقافة الغربية ونبذ للثقافة العربية، وهو أحد مَن كانوا يتَلمَّسون العلم والمعرفة لدى الغرب، ولا يجدون في غيره الفلاح، حتى إذا سطعت أمامه الحقيقة في أسمى معانيها آثر أن يكشفها لأبناء وطنه الكبير، أبناء الأمة العربية والإسلامية.

شهادات الكتّاب

وقد أجمع كثير من الكتاب على تميز محمد حسين هيكل في كتابه منزل الوحي، فكتب وحيد عبد المجيد: «هذا كتاب لا مثيل له في مجال السيرة النبوية. كتاب امتزج فيه العلم والإيمان، والعقل الناقد والقلب المؤمن، فصار أجمل ما كُتب في هذا المجال أسلوبًا، وأعمقه موضوعًا، رغم أن مؤلفه ليبرالي الاتجاه»، (بوابة الاهرام في 28 أكتوبر 2020).

وكتب حسين با فقيه: «لن نُنزل كتاب» في منزل الوحي«، للدكتور محمد حسين هيكل، ما يستحقه من التاريخ ما لم نضعه في موضعه الملائم من كتب الرجل وحركة الأفكار التي تقلب فيها عصره»، ويتابع الكاتب قائلاً: «إن كتاب في منزل الوحي ليس كتاب رحلة كغيره من كتب الرحلات».

وذكر أحد المواقع عن منزل الوحي: "الكتاب عبارة عن وثيقة تاريخية وأدبية فريدة تسمو بالنفس الإنسانية وترتفع بها إلى حيث يتمثل بالنبي، ﷺ، في المكان الذي هبط فيه الوحي على النبي، في موطن الرسالة المحمدية، يتمثل مواضع أقدام النبي المصطفى ويرتفع بنفسه من دنس المعاصي إلى طهر الطاعة، فهي خواطر مليئة بالإيمان تبحر في أعماق ماضي هذه الأمة بصورة حديثة يرى فيها الكاتب عظمة الثقافة العربية، تلك العظمة التي كانت تغيب عن المؤلف ويتلمس الثقافة الغربية في كل مكان، فأراد أن ينقل هذه الحقيقة لكل مسلم." (البوابة، يوليو 2016).

هامش

للتعرف على مزيد من الجوانب الفكرية والأدبية حول محمد حسين هيكل، ينظر:

محمد سيد محمد: هيكل والسياسة الأسبوعية – الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة – 1966م.

محمد رجب البيومي: النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين – دار القلم – دمشق – 1415هـ = 1995م.

فتحي رضوان: عصر ورجال – مكتبة الأنجلو المصرية – القاهرة – 1967م.

محمد مهدي علام: المجمعيون في خمسين عامًا – الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية – القاهرة 1406هـ = 1986م